

كورت ليفين Kurt Lewin

بقلم

ماهر طامل

ماجستير في الآداب

في ١٢ فبراير سنة ١٩٤٧ فقد علم النفس أستاذاً جليلاً من أئمة هذا العلم في العصر الحديث وهو الأستاذ كورت ليفين وكان في الحول السادس والخمسين من عمره . وقد استطاع هذا العالم أن ينشئ مدرسة تنظر إلى الحقائق السيكولوجية نظرة تكاملية ديناميكية فكان له ولمدرسته الفضل في أن سلم معظم علماء النفس الحديثين بهذه الوجهة . ومن أهم مؤلفاته «مبادئ في علم النفس التوبولوجي» و«مبادئ علم النفس الديناميكي» ولقد كان آخر منصب علمي تولاه هو رئاسة مركز الأبحاث الديناميكية للجماعات وذلك بالمعهد الفنى بماسشوستس بأمریکا وبمناسبة وفاة هذا العالم الكبير نتقدم إلى قراء المجلة بهذا الملخص الذى يلقي ضوءاً على مناحى فلسفته المختلفة والاتجاهات الجديدة التى كان قد اتجه إليها

رأى كورت ليفين أن بعض علماء النفس يتجهون في دراساتهم السيكولوجية اتجاهاً تحليلية تخرج بالحياة النفسية عن الارتباط والوحدة وهما من أهم صفاتها فالنواحي المختلفة التى يتجهون إلى دراستها ليست قائمة بذاتها بل هى تتأثر ببعضها وتتكامل الحياة النفسية بها جميعاً لا بكل ناحية منها على حدة . ولذلك إذا درسنا ظاهرة نفسية عند الإنسان كان علينا أن نراعى المجالات الثلاثة الآتية :

١ — علينا أن نراعى المجال الفيزيقي الذى يحيط بنا فالفرد قد يتأثر بالحجرة التى يجلس فيها وترتيب الأثاث فى هذه الحجرة وباقى الأشياء المادية التى تحيط بنا لا فى الحجرة فحسب بل والمترل والمدينة والوطن بل والعالم أيضاً ... ومثال ذلك أننا نشعر باختلاف فى حالتنا نفسية ونحن فى حجرة مرتبة عنا

ونحن في حجرة غير مرتبة كما أننا نختلف ونحن في حجرة ذات رياش فاخر عنا
ونحن في حجرة متواضعة

٢ - وعلينا أن نراعي المحيط الاجتماعي أو البيئة الاجتماعية التي تحيط بنا
أو نخضع لتأثيرها حتى ولو لم تكن على اتصال مباشر بنا في هذه اللحظة وأن ندرس
علاقة الفرد بباقي الأفراد الذين يجلس إليهم ومركز الفرد من المجتمع بوجه عام ومركزه
في هذا المجتمع بوجه خاص وشخصية هؤلاء الأشخاص الذين يتعامل معهم ومركزهم
في المجتمع... ومن أبسط الأدلة على أن للمحيط الاجتماعي أثر بليغ في نفسية الفرد
أن مثيراً معيناً قد يثير عندي انفعالا في وقت معين وقد لا يثير وأنا أمام أشخاص
آخرين ، وقد أغضب من كلمة معينة تصدر من شخص معين وقد لا أغضب من
نفس الكلمة إذا ألقيت من شخص آخر بل هي قد تثير ضحكي أو ابتسأى ...

٣ - وكذلك ينبغي أن نراعي شخصية الفرد من حيث غاياته وأمانيه التي
تؤدي دوراً هاماً في تكوين هذه الشخصية وكذلك نراعي مخاوفه وأحلام يقظته
ومثله العليا وعواطفه المختلفة وعاداته وميوله المتعددة وفي عبارة واحدة نراعي جميع
الظواهر النفسية المؤثرة بالنسبة لهذا الشخص .

من هذه المجالات الثلاثة يتحدد المجال النفسي للفرد أي ما له وجود سيكولوجي
عند الفرد في لحظة معينة وما ليس له وجود عنده ؛ فأنا الآن أختلف عنى أنا في
لحظة أخرى وما أشعر به أنا الآن يختلف عما أشعر به في وقت آخر . فكيف نستطيع
أن نحدد الخبرات السيكولوجية أو ما له وجود نفسي عند شخص معين ؟ كيف
نستطيع أن نحدد ما هي الأشياء الموجودة بالنسبة للشخص في ميدانه النفسي ؟
قد نستطيع أن نعتبر الشعور الفردي محكاً لما يوجد لدى الفرد من عوامل مؤثرة ...
فما دام الفرد يشعر بعامل معين يعتبر هذا الشعور دليلاً على أن لهذا العامل وجوداً
نفسياً وبالتالي يمكن اعتبار أن له تأثيراً في الموقف . ومعنى هذا المحك أن المجال
الطبيعي يمكن أن نعتبر له وجوداً نفسياً طالما كان الفرد شاعراً به... ومن الواضح أنه
إذا كنت جالساً في حجرة معتاد عليها فان الحائط الذي يقع خلف ظهري والصور
المعلقة على هذا الحائط يدخل ضمن دائرة البيئة المادية أو المحيط المادى الذى يؤثر
في اللحظة الراهنة بل وأكثر من ذلك فإن الحجر المجاورة أو موقع المنزل على
شاطئ البحر مثلا أو مواجهته لشارع هام كل هذا يدخل في الموقف السيكولوجي
الراهن .

على أننا يمكننا أن نشك فيما إذا كان من الممكن أن نعتبر الشعور هو المحك الوحيد للحكم على ما يدخل ضمن مجال الحياة السيكولوجية في لحظة معينة من حيث الحقائق الاجتماعية أو العلاقات بين فرد وفرد أو بين فرد ومجتمع . فالأم والأب والأخوة والأخوات لا يمكن أن نعتبرها حقائق واقعية في المجال السيكولوجي للطفل إلا إذا كانوا موجودين وجوداً فعلياً أمامه فالطفل يسلك في لعبه في الحديقة أو في المنزل في غياب والدته سلوكاً يختلف عن الحالة التي تكون موجودة فعلاً في المنزل . وهذا يدل على أن أمه ليس لها وجود دائم في شعوره ... ومع ذلك فإننا يمكننا أن نقرر من جهة أخرى أن نصائح أمه والعادات التي غرسها فيه من غير شك تؤثر في سلوكه بوجه عام وإذن فالشعور ليس هو المحك الوحيد .

وجهة النظر الديناميكية: وهي تعتبر أن « الحقيقي من الوجهة السيكولوجية هو ما له نتائج » *What is real is what has effects* . ذلك أن وجهة النظر الديناميكية تعتبر الموقف كله عبارة عن مجموعة من العوامل المؤثرة في الفرد وبالتالي يمكن أن نعتبر ما يتصف بأنه مؤثر *effective* بأن له وجوداً بالفعل فليس كل ما له وجود مادي في الحجرة التي أجلس فيها يعتبر له وجود نفسي بل ما يؤثر فقط من ناحية من النواحي ... وكل ظاهرة مادية تؤثر يقابلها معنى في المجال السيكولوجي في حين أن هذا المجال السيكولوجي غير مقيد أو محدد بمجال فيزيقي لا يتعداه ... ومن هذا يتضح أننا إذا كنا نريد أن ندرس المجال الفيزيقي وعلاقاته بالفرد لا ينبغي أن نقف عند دراسة الأشياء المادية بل آثارها ونتائجها في الناحية السيكولوجية دراسة ديناميكية . وعلم النفس الديناميكي هو العلم الذي يبحث في طرق السلوك التي يحتمل أن تحدث أو لا تحدث بناء على موقف معين أي أن الموقف ينبغي أن ينظر إليه على أنه مجموعة (إمكانيات) أي ما يحتمل حدوثه أو عدم حدوثه بناء على هذا الموقف . ويذهب كورت ليفين إلى أن مادة كل العلوم الطبيعية أو التجريبية يجب أن ننظر إليها هذه النظرة الديناميكية وإلا فإن العلوم لا تكون ذات موضوع أو فائدة من الناحية العملية أو النظرية ... فمثلاً قطعة الحديد يجب أن ننظر إلى خصائصها التي يمكن أن نستفيد منها وطريقة استخدامها . وكذلك في علم النفس لا ينبغي أن ندرس مواضيع علم النفس إلا بمراعاة الخصائص التي ينتظر أن تنشأ أو لا تنشأ بالنسبة لهذه المواضيع . ومن غير شك نستطيع في علم النفس - كما في غيره من العلوم - أن ننجح في تفسير الظواهر التي نراها غامضة .

مجال الحياة العام ومجال اللحظة الراهنة : يرى كورت ليثين أننا نستطيع أن نفهم أى موقف بواسطة المجال السيكلوجي للحياة عامة أى بدراسة تاريخ حياة الفرد .. ويذكر للتدليل على ذلك المثال التالى : « السيدة تقف فى المغزل فى مكان مليء بالضوضاء ... قطع أحد الخيوط ... على وشك أن توقف الآلة لترى ماذا حدث .. الوقت قبيل ميعاد الغذاء مباشرة .. لم تنتج السيدة فى هذا الصباح إلا الشيء القليل .. يبدو عليها حالة ضيق وضجر .. »

هذه هى بعض الملاحظات التى تمثل الموقف الحاضر لهذه السيدة . وبدراسة مجال الحياة اتضح ما يأتى :

كانت متزوجة من ثلاث سنوات ، وقد فصل زوجها من عمله منذ سنة ونصف وكان قد مرض طفلها الذى عمره سنتان مرضاً خطيراً ولكنه الآن بدأ يتحسن . وحدث أن تشاجرت هى وزوجها ولا يزال الشجار يزداد ، وقد حدث شجار بالفعل فى صباح نفس هذا اليوم . ولقد اقترح والد الزوج أن يرسل لهما اليوم الطفل فى القرية . لم تقرر الزوجة بعد ماذا ستفعل أزاء اقتراحهما .

من الواضح من هذا التحليل كيف أن مجال الحياة العام يرتبط بالموقف الراهن . ففى هذا المثال يمكن أن نعتبر مجال الحياة بمثابة أرضية Background بالنسبة للموقف الراهن . ويحتمل أن السيدة كانت تفكر فى طفلها عند ما كانت تعمل وبهذا يكون مجال الحياة قد تدخل تدخلها مباشراً فى الموقف الراهن .

إن المرأة - بسبب النزاع بينها وبين زوجها أصبحت تنظر بعين جديدة إلى كل ما يحيط بها ؛ إلى الحجر التى تعيش فيها وإلى إدارة منزلها فالمواضيع أو الأشياء التى كانت عزيزة عليها قبل أن تضطرب العلاقات مع زوجها ربما أصبحت غير مرغوب فيها بينما حل محلها أشياء أخرى . والحجرة التى مرض فيها الطفل قد تغيرت فى خصائصها ثم تغيرت من جديد عندما شفى الطفل . وهكذا يلعب تاريخها الماضى دوراً كبيراً فى تقدير أهمية الأشياء بالنسبة إليها ؛ فقيم الأشياء تتغير كلما حدث تغير فى مجال الحياة العامة . كما أنه من السهل أن نلاحظ أن الجزء المكون من مجال الحياة يكبر أو يصغر تحت تأثير كل حادث جديد ، وكذلك يختلف مدى تأثير مجال الحياة بحسب الموضوع الذى يعترض الفرد كموضوع الزواج مثلاً أو موضوع الاتحاق بعمل معين وهكذا ...

واكى نستطيع أن نتبين في جلاء مدى تأثير مجال الحياة ينبغي أن نراعى الاعتبارات الهامة التالية :

أ - الحقائق الشبيهة بالطبيعية Quasi-Physical Facts : لا ينبغي في دراستنا لمجال الحياة أن ندخل جميع العالم الطبيعي بخصائصه الموضوعية كما يدرسها علم الطبيعة.. فهذه الحقائق الطبيعية ينبغي ألا نقيم لها وزناً إلا بقدر ما تؤثر في الموقف الراهن للفرد وبالطريقة التي تؤثر بها هذه الأشياء . فلئن كان العالم الطبيعي يقرر أن البيئة المحيطة بالطفل هي نفس البيئة المادية المحيطة بالرجل البالغ إلا أننا في علم النفس نقرر أن البيئتين مختلفتين اختلافاً جوهرياً ... ونفس هذه القاعدة صحيحة بالنسبة للرجال والحيوانات بل وبالنسبة لأي شخصين طالما كانا مختلفي الشخصية . بل يمكن أن نقرر أيضاً أن نفس البيئة الفيزيقية المحيطة بنفس الشخص تختلف بالنسبة إليه من موقف آخر كالفرق بينه وهو جوعان وبينه وهو مشبع بالطعام أو الفرق بينه وهو حزين وبينه وهو سعيد فهو في كل من الحالتين ينظر إلى المنظر الطبيعي نظرة تختلف عنها في الحالة الأخرى . وليس معنى ذلك أننا ننكر صدق القاعدة أن البيئة الفيزيقية المحيطة لها تأثير على الفرد بل معنى ذلك أننا لكي تمثل هذه البيئة يجب أن نصورها من حيث تأثيرها على الفرد في الموقف الراهن ومدى الإيحاءات التي يشتقها منها .

ب - الحقائق الشبيهة بالاجتماعية Quasi-Social Facts : نفس الفارق الذي تبيناه بين الحقائق الفيزيقية بحسب ما يعينها علم الطبيعة وبين الحقائق الشبيهة بالطبيعية التي يعينها علم النفس يمكن أن نتبينه أيضاً بين الحقائق الاجتماعية كما يعينها علماء الاجتماع وكما يقصدها علماء النفس الاجتماعي ... وإليك الأمثلة التالية لتوضح هذه الحقيقة . عندما تهدد الأم طفلها الشاذ المتشرد بأنها ستحضر له رجل البوليس ، يجب ألا ننظر إلى مدى سلطة رجل البوليس على الطفل ولكن إلى رجل البوليس كما يتصوره الطفل ، ونفس وجهة النظر يجب أن ننظر بها إلى بابانويل أو إلى سلطة الوالد أو إلى أي علاقة من العلاقات الاجتماعية ، فإذا نظرنا مثلاً إلى عضوية فرد من الأفراد في أحد الأندية ينبغي ألا ننظر إلى حقوق وواجبات أعضاء هذا النادي ولكن إلى مدى تأثير النادي على هذا الفرد ومدى الشعور الذي يحمله الفرد نحو هذا النادي ، وعلى هذا ينبغي أن نتكلم عن حقائق شبيهة بالاجتماعية لا عن حقائق اجتماعية مباشرة .

وينبغي ألا ننسى أن الحقائق الاجتماعية والحقائق الشبيهة بالاجتماعية مرتبطتين ببعضهما جداً فثلاً هناك علاقة كبيرة جداً بين القوانين التي يخضع لها أفراد أمة من الأمم من ناحية وبين شعور الأفراد نحو هذه القوانين ومعرفةهم بها ومدى تأثيرها عليهم من ناحية أخرى ... وهذه العلاقة لها قيمة كبيرة جداً حتى أنه قد يتوقف عليها فيما بعد تعديل الحقائق الاجتماعية ذاتها ..

ج - الحقائق الشبيهة بالعقلية Quasi-Conceptual Facts

بالإضافة إلى الناحيتين السابقتين الفيزيقية والاجتماعية يجب أن نراعى أيضاً الناحية العقلية . فما ينطبق على الحقائق الفيزيقية والحقائق الاجتماعية كذلك ينطبق على المبادئ العقلية من حيث تأثيرها على المجال النفسى للحياة . فإذا انشغل فرد مثلاً بحل مسألة رياضية ، فيجب عليه أن يتبع خطوات معينة في التفكير ليقرر العلاقات الرياضية المناسبة وأن يجد طريقة بواسطة نظام من الأفكار الرياضية ، وهكذا نجد أن المجال النفسى الذى يواجه فيه الفرد المشكلة قد تحدد فى المجال الرياضى . هذه الحقائق الرياضية المعينة التى يمكن أن تكون أكثر أو أقل وضوحاً فى الذهن يجب أن يكيف الفرد نفسه بحسبها حتى يستطيع أن يحقق أهدافاً معينة وهكذا أصبحت المبادئ الرياضية أحياناً لا تقل ديناميكية عن بعض الحقائق الفيزيقية أو الاجتماعية .

وينبغي ألا ننسى هنا أيضاً أنه ليس هناك تطابق تام بين التكوين الموضوعى للمبادئ الرياضية والمجال الرياضى وبين المجال السيكلوجى للفرد إزاء مشكلة رياضية ومع ذلك فإن عدم التطابق لا يمنع من أن المجال السيكلوجى له تأثير فى فهم وحل المشاكل الرياضية ، وإذن فلا ينبغي أن ننظر إلى الحقائق الرياضية الموضوعية بل ننظر إلى مدى فهم الفرد لها وميله إليها وقدرته على تطبيقها ولذلك ، لا ينبغي أن نتكلم عن الحقائق العقلية بل شبيهة بالعقلية .

* * *

وأخيراً نضيف إلى أن المجالات الفيزيقية والاجتماعية والعقلية ليست بدورها منفصلة عن بعضها انفصالاً تاماً ، ولكننا يجب أن نعرف أننا إزاء دراسة المجال السيكلوجى للحياة كلها ، ولهذا لا ينبغي أن ننظر أن هذه المجالات الثلاثة منفصلة

اللهم لإعلى سبيل التبسيط للفهم فنحن الذين نقوم بهذا التمييز بين هذه المجالات...
وهناك من الحالات التي تعترض الباحث ما لا يمكن تحليله إلى هذه المجالات
إلا بكل صعوبة ..

* * *

تطبيق المنهج الرياضى فى علم النفس

١ - تصوير الحياة النفسية فى صورة مكانية بحسب المعنى الرياضى :

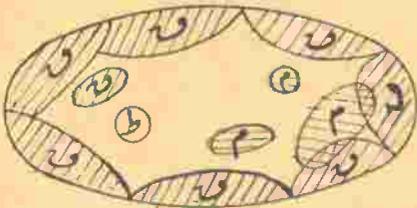
لقد بينا أن لكل فرد تاريخاً نفسياً طويلاً يتدخل ويؤثر فى الموقف الراهن للفرد
ولذلك إذا أردنا أن نصور موقفاً سيكولوجياً معيناً يجب أن يكون تعبيرنا عنه بتصوير
إنسان طبيعته كذا وكذا فى موقف خصائصه كذا وكذا أى أن نصور الفرد والبيئة ..
فتلاً نقول فلان رفض جميع الدعوات التى وجهت إليه لأنه مستغرق فى العمل ولا يميل
إلى الحفلات ، أو يقال ، فلان جالس على مقعد العمليات عند طبيب الأسنان
ويحاول أن ينسى أن الطبيب خلفه يستعد أن يحقنه بمصل معين ، أو يقال ،
فلانة واقفة عند سور الحديقة ومستغرقة فى حلم يقظة يدور حول كيفية نزول الرجل
الأول من السماء إلى الأرض داخل كرة صغيرة جداً ..

وهكذا نجد أن كل الدراسات الخاصة بمجال الحياة السيكولوجية تتطلب
التفكير فى فرد ذى خصائص معينة فى مجال معين . ولئن كنا قد نعجز أو نشك
فى القدرة على التمييز فيما إذا كانت بعض العوامل تنتمى إلى الفرد أم إلى البيئة
المحيطة بالفرد إلا أننا رغم ذلك نشق بأن العلاقة (الفرد - البيئة) يمكن أن نصورها
تصويراً مكانياً .

وبالإضافة إلى الفرد يوجد عدد كبير من العوامل الشبيهة بالفيزيقية والشبيهة بالاجتماعية
والشبيهة بالعقلية تؤثر فى مجال الحياة ، وهذه الحقائق لها علاقات مكانية معينة ينبغى
ألا نغفلها . فمجال الحياة يمكن أن يقسم إلى مناطق مختلفة فى الكيف ويمكن أن
توجد لها حدود تميزها ... ولقد قام ليفين ومدرسته بعدة تجارب لبيان مدى

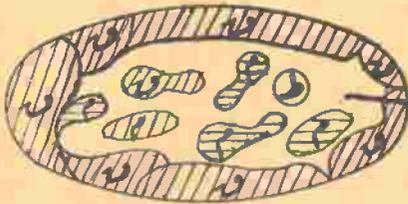
أهمية كل عامل ومدى الارتباط بينه وبين باقي العوامل التي ينفصل بها عنها .. وخلصوا من هذه التجارب إلى الاقتناع بأن الاصطلاحات الرياضية مثل (مناطق حدود - منفصلة - حركة - قوة - طاقة الخ) هي اصطلاحات تنطبق تماماً على الحياة النفسية بل هم يرون أنه من المهم جداً لعلم النفس أن يستخدم هذه الاصطلاحات بالمعنى الرياضي الدقيق لها وسنذكر بعض الأمثلة لنتبين كيف أن هذه العلاقات يمكن تصويرها تصويراً مكانياً .

مثال ١ : الحركة الحرة للطفل مقيدة بعاملين هما : أ - ما يسمح به للطفل ب - ما تستطيع قدراته أن تؤديه .



(شكل ١)

(ط) طفل (ق) مناطق قدرات الطفل لا تسمح بها
(م) مناطق محرمة . ملاحظة : المجال السيكولوجي
الحر واسع نسبياً



(شكل ٢)

المحرمة (ط) طفل (ق) مناطق قدرات الطفل لا تسمح بها (م) مناطق
بالنسبة لكل محرمة . ملاحظة : المجال السيكولوجي الحر ضيق نسبياً

طفل من الأطفال في مجال الحياة السيكولوجية، فإننا قد نجد أن الجزء
المسموح به وهو الجزء الباقي في المجال السيكولوجي قابل بالنسبة لبعض
الأطفال بينما يكون كبيراً بالنسبة للبعض الآخر. (انظر شكل ١، ٢)

(١) بالنسبة للنقطة الأولى

فالطفل (ط) قد لا

يسمح له بالخروج إلى

الشارع بمفرده ولا يسمح

له أن يقرأ نوعاً معيناً من

الكتب أو المجالات ولا

يسمح له أن يتسلق

سوراً أو أن يقطف

بعض الأزهار

أو أن يسيء

إلى الضيوف

الخ. فإذا كنا

نحدد المناطق

مجال الحركة

(ب) وبالنسبة إلى النقطة الثانية فإننا لا نستطيع أن نفعل أيضاً أن مدى ما يستطيع الطفل أن يؤديه له قيمة كبيرة في تحديد مجال الحركة الحرة فهناك فارق بين الطفل الموهوب أو الذي يتمتع بقسط كبير من القدرات الخاصة الممتازة وبين الطفل العادي مثلاً .

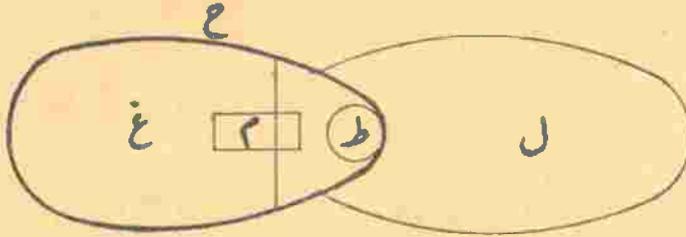
من هذين الفارقين بين الطفلين يتضح أساس الاختلاف بينهما في السلوك والترقى في النواحي المختلفة ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالشخصية ومدى الاستقلال الذاتي .

وبالإضافة إلى ما تقدم يشير ليفين إلى أن مدى صرامة حدود المناطق المحرمة لها قيمتها الهامة فهناك مجتمع يلجأ البالغ فيه إلى القسوة في رقابته على الطفل فيجعل الحدود التي تميز المناطق المحرمة واضحة جداً ولا تسمح بالاقتراب - كما لا يستطيع السجن أن يقترب من سور السجن - بينما قد يحدث في حالة أخرى أن يحافظ البالغ على هذه الحدود بدون التجاء إلى القسوة، فينشأ الطفل في كل حالة من هاتين الحالتين مختلفاً تماماً عنه في الحالة الأخرى . على أنه في كلتا الحالتين نجد أن حدود الحركة ليست فيزيقية - كتلك السلاسل الضخمة أو القضبان الحديدية التي تقيد حركة السجن - بل هي حدود اجتماعية وتتوقف شدتها على مدى صرامة وشدّة العلاقات الاجتماعية وعلى عوامل سيكولوجية كالخوف من الساطة أو من العقاب أو الشعور بالعطف الخ ...

مثال ٢ : كذلك يتوقف مجال الحركة الاجتماعية العامة على المناطق المحرمة من ناحية وعلى المناطق الممكنة من ناحية أخرى . فهناك فارق في الحركة بين أفراد الطبقات الاجتماعية المختلفة حتى إذا تساوا في الحقوق الشرعية ، فالرجل الغني مثلاً لديه مجال أوسع للحركة بوجه عام بفضل ممتلكاته ووسائله فهو يستطيع أن يأخذ قطاراً أو سيارة أو طائرة يستطيع أن يصل إلى هدفه بسرعة بينما الرجل الفقير - بالرغم من أنه قد يساوي الرجل الغني في الحقوق - إلا أنه يجد من واجبه أن يسعى أولاً ليجد قيمة ما يكفل له العيش والطعام وضروريات الحياة وبذلك يضيق مجال حركته كثيراً عن الرجل الأول . وينبغي أن نلاحظ أننا نقصد ميدان الحركة السيكولوجية ، فالرجل الغني يشعر أنه قادر على تحقيق أهدافه بينما يشعر الفقير أنه

عاجز عن الاقتراب منها . وفي هذا المثال نشير إلى الظروف التي تساعد بوجه عام على زيادة المجال السيكولوجي من حيث الاتساع أو الضيق ومن أهم هذه الظروف الفروق الاجتماعية بين الأفراد .

مثال ٣ : أم أخذت طفلها الذي عمره سنة واحدة وحاولت أن تغذيه بعد أن وضعت على فخذها - ولكنه رفض الأكل ويسود عليه الميل نحو الحرب والاتجاه للعب - حملت الأم الطفل على فخذها ومنعته من تحقيق رغبته وأحاطته بذراعاها حتى لا يفر . فتدخل الأم أصبح بمثابة الحاجز (ح) الذي يقع بين منطقة الغذاء (غ) ومنطقة اللعب (ل) وهذا الحاجز في الوقت نفسه لا يسمح للطفل بأن يهرب من الملعقة (م) التي وضعت بالقرب من فمه . من هذا يتبين

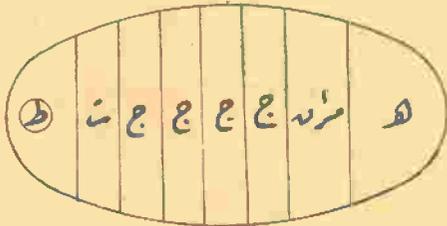


(شكل ٣)

(ط) الطفل (ح) حاجز (ل) لب (غ) غذاء (م) ملعقة

أن مجال الحركة عند الطفل ضيق جداً ولذلك بدأ في الكفاح ضد هذه الحواجز والشكل ٣ يبين هذا المثال .

مثال ٤ : الهدف الذي يرى إليه أحد الطلاب (ط) هو أن يصبح صيدلياً ،



(شكل ٤)

(ط) طالب (ت) امتحان التوجيهية

(ج) امتحانات جامعية (هـ) هدف

والطريق إلى هذا الهدف (هـ)

يتطلب اجتياز امتحانات

التوجيهية بدرجات عالية (ت)

ثم عبور الجامعة (ج)

بامتحاناتها المختلفة ثم اجتياز

مرحلة المران وغير ذلك من

العقبات أو الحواجز . وقد يتكون

لدى الطفل فكرة عن هذه المراحل ولكنها غالباً لا تكون دقيقة تماماً . (أنظر شكل ٤)

والطالب إذ يجتاز امتحان التوجيهى بدرجات عالية إنما هو يخطو خطوة إلى الأمام «ويتحرك» نحو تحقيق هدفه . . «هذه الحركة» من غير شك ليست حركة جسمية ولكنها مع ذلك حركة لاشك فيها . فهي تغير في الوضع من الناحية الشبه اجتماعية Quasi-Social وهكذا كلما اجتاز الطالب امتحاناً من الامتحانات شعر بالاقتراب من الهدف بدرجة أكبر ، ويتضح هذا الفارق إذا تبينا أنه بعد اجتيازه امتحان التوجيهى مثلاً والتحاقه بالجامعة يصبح في مقدوره أن يقوم بأعمال كثيرة لم تكن في مقدوره من قبل ، فمثلاً أصبح من حقه الذهاب إلى الجامعة وأصبح يستطيع أن يتحكم في زمنه بدرجة أكبر وكذلك تغيرت مكانته الاجتماعية فهو يستطيع أن يشترك في فريق الكرة الجامعى كما يشترك في أوجه النشاط الجامعى بمختلف صوره . وهكذا يمكن اعتبار الامتحانات بالنسبة إليه بمثابة الحواجز أو الحدود التى تفصل بين منطقتين مختلفتين وعليه أن يجتاز هذه الحدود إذا أراد أن ينتقل من منطقة إلى أخرى . فإذا ما رسب في أحد هذه الامتحانات فإنه لا يتقدم نحو هدفه وليس هذا هو التغير الوحيد فقط بل قد يترتب على ذلك تغير في المجال السيكولوجى كله ، فالوكان هذا الامتحان مثلاً هو امتحان التوجيهى فإن معنى ذلك أنه سيشعر أنه بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى من الدخول إلى الجامعة فإنه تباعد بينه وبين هذه المنطقة الجديدة بفترة زمنية جديدة ... وكذلك سيشعر أن هذا الحاجز أصبح أقسى وأشد وأنه ليس من السهل عبوره ، وقد يترد الشاب إلى الخلف بل قد يبحث له عن هدف جديد .

مثال ٥ : والاقتراب من شخص بواسطة حديث من الأحاديث هو مثال آخر للحركة الاجتماعية التى بالرغم من أنها لا تتضمن أى نوع من أنواع الحركة الفيزيقية إلا أنها من الناحية السيكولوجية حقيقة واقعة إنها حركة كتلك الحركات التى يشعر بها الفرد عند ما يتفادى مشكلة من المشاكل أو يستنكر فعلاً معيناً صادراً عن فرد أو جماعة ..

مثال ٦ : وهناك حركة في المجال الشبه عقلى Quasi-Conceptual كتلك الحركات التى يقوم بها الفرد عند ما يبدأ في حل مسألة رياضية مثلاً ، فتجده يحاول بذهنه أن يطرق المسألة من هنا ومن هناك بعد أن يتمثل المسألة التى تشبه منطقة مجهولة غامضة . وقد يكون له من حسن الحظ أن يقرب من الحل عن طريق فكرة معينة

أو عمل معين فيشعر عندئذ بالتقدم نحو الحل وهذا التقدم من الناحية السيكلوجية حركة حقيقية لا شك فيها .

* * *

بملاحظة الأمثلة السابقة المتصلة بالحركة السيكلوجية نشعر شعوراً واضحاً بوجود المناطق وأيضاً بوجود خلاء بين هذه المناطق ونستطيع أن نتصور هذا الخلاء كالممرات أو الشوارع التي ينتقل فيها الدهن هنا وهناك فيطرق هذه المنطقة ثم ينتقل منها إلى تلك عن طريق هذا الخلاء ، وليس الشخص بنفسه هو الذي ينتقل فقط بين هذه المناطق في المجال النفسى للحياة بل كذلك الأشخاص الآخرون والحيوانات والجماعات والأشياء المادية بمختلف صورها . . . فقيم هذه الأشياء جميعاً تتغير عند الفرد بحسب الأحداث المختلفة التي تؤثر في مجال الحياة العام . وكذلك الفرد - دون أن يتحرك حركة فيزيقية - قد يحركه المجتمع ويغير نسبه إليه أو مكانته فيه وقد يباعد المجتمع بين الفرد وبين هدفه تدريجياً أو فجأة بل وقد يجعله يسير في اتجاه مضاد لهدفه وضد مجهود نفسه . فالرسوب في الامتحان مثلاً قد يحدث حركة تنقلات في مواقع المناطق وقد تثبت المناطق ولكن تتحرك الأرضية ، ولذلك من المهم أن نعرف فيما إذا كانت الأرضية ثابتة نسبياً أو أنها في تغير مستمر . وكذلك من المهم أن نعرف إذا كانت الحركة السيكلوجية موجهة ناحية هدف معين أو نحو الابتعاد عن بعض المناطق . فإذا وقفت الحركة السيكلوجية عن التقدم بواسطة حاجز قوى فإن ميلاً نفسياً أو يمكننا أن نقول « قوة » تنشأ للدفع في اتجاه هذا الهدف .. ومثال ذلك السجنين تنشأ لديه « قوة » كبيرة للتخلص من قيود السجن ، والطالب في السنة النهائية لديه « قوة » لاجتياز الامتحان وللتخلص من سيطرة الأب ويشعر بعد ذلك أنه أصبح رجلاً يكسب ليعيش .

المناطق الداخلية للفرد : مما سبق تكون فكرة المناطق قد تقدمت تقدماً لا بد منه لكي نفهم ونتمثل الشخصية تمثيلاً صحيحاً . فقد أصبح الإنسان بناء على هذه النظرية نظام طبقات له تركيب وتكوين دقيق ومن الممكن أن نميز فيه بين مناطق تعتبر رئيسية ومناطق ثانوية ... وهذا التمييز في غاية الأهمية بالنسبة للذاكرة وللانفعالات وللاقتناع بالذات والشعور بالرضى .

العلاقات التوبولوجية بين المناطق : هناك نوعان من القياس في الهندسة : قياس أبعاد ويكون بالنسبة لوحدة ثابتة كالتر أو القدم وهذه هي هندسة الأبعاد ، وهناك قياس عن طريق إيجاد نسب بين متغيرات وهذه هي الهندسة التوبولوجية ، وهذا النوع الأخير من القياس هو الذي يمكن تطبيقه في علم النفس .

إن التصور الرياضي للمكان يمكن أن ينشأ عن عدة علاقات رئيسية كعلاقة الجزء بالكل أو الشكل بالأرضية أو المركز بالمحيط إلخ .. والمكان إذا درسناه على أساس هذه العلاقات - لا على أساس القياس بأبعاد ثابتة - يسمى « مكاناً تبولوجياً » ويقصد بهذا اللفظ أننا نتعامل مع علاقات رياضية لا مع مقاييس . ومن هذا يتضح أنه لا يوجد أبعاد مطلقاً في المكان التوبولوجي ولا بهمننا إن كان حجم الشيء هو حجم نقطة ما أم حجم الأرض كلها - ومع ذلك فإن هذه الأمكنة التوبولوجية تعرض خصائص هامة جداً بالنسبة للمكان القياسي (الذي يقاس) . وهناك فرع من فروع الرياضة العالية قام على أساس فكرة العلاقات . ويدرس هذا العلم الأمكنة المنفصلة أو المرتبطة والأنواع المختلفة للعلاقات ، والعلاقات بين الأجزاء في المناطق المختلفة ويدرس الحدود والمناطق والمقاطع .. الخ .. ويقرر هذا العلم أن المسائل التي تقوم على الأبعاد يمكن أن تعالج على أساس الأفكار التوبولوجية بدون استخدام الخصائص القياسية .

ويرى كورت ليفين أنه أصبح من المهم جداً تطبيق العلاقات التوبولوجية على جميع فروع علم النفس لأنه يقوم على دراسة علاقة الجزء بالكل وعلاقة الأجزاء ببعضها ودراسة التمييز بين المناطق المتصلة والمنفصلة وفكرة مجتمعات المناطق وفي كلمة موجزة ، أصبحت دراسة التغيرات التي تطرأ على المناطق لها أهمية كبرى على الأخص فيما يتعلق بالتذكر والإدراك الحسي والعواطف .. الخ ، كما وأن الفكرة الرئيسية في دراسة فرد معين في بيئة معينة إنما هي علاقة توبولوجية بين مجالين .

* * *

(ب) المبادئ الأساسية في الديناميكا : فيما يلي بعض المبادئ الهامة الخاصة بعلم النفس الديناميكي :

(١) إذا كنا نريد أن نعبّر عن الأحداث السيكولوجية فإنه لا يكفي أن نتصورها تصوراً مكانياً فقط بل يجب أيضاً أن نتصور العلاقات الديناميكية في صورة رياضية فمثلاً نعبّر عن كل ميل قوى بكلمة « قوة » .

(٢) ولكن يجب أن نفهم أنه ليس هناك تطابق تام بين الطاقة الديناميكية والتعبير الرياضي عن هذه الطاقة .. فالتعبير الرياضي الواحد يجوز أن يكون رمزاً لطاقات ديناميكية مختلفة فمثلاً كلمة Vector (قوة موجهة directed force) قد لا تمثل فقط القوى بل قد يمثل أيضاً الحركات . ولذلك ينبغي أن نميز بين الخصائص الرياضية الصورية وبين الطاقات الديناميكية ومحتوياتها من الظواهر السيكولوجية الحقيقية المرتبطة بها .

(٣) ولا ينبغي أن نتصور أن جميع العلوم التجريبية تستخدم نفس الاصطلاحات للتعبير عن الناحية الديناميكية ... وعلى الأخص يجب ألا نتصور أن علم النفس يستخدم نفس اصطلاحات العلوم الطبيعية .

(٤) ولكن على وجه العموم فإن علم النفس حتى الآن يستخدم اصطلاحات قريبة الشبه جداً باصطلاحات الطبيعة . فمثلاً كل من العلمين يستخدم كلمة « تعادل » على أنها تمثل وجود « قوى » أو « طاقات » ووجود علاقة « تساوى » في نتائج هذه القوى .

(٥) يقرر كورت ليفين أنه يجب أن نعرف أننا عندما نتكلم عن ظواهر سيكولوجية كالمناطق أو القوى أو التغيرات الخ فنحن لا نتكلم عن أشياء من اختراع الخيال ولكن عن أشياء حقيقية لها نفس نوع الوجود الذي للحقائق البيولوجية .

* * *

(ج) العالم الفيزيقي كوحدة ديناميكية مغلقة والعوالم النفسية كوحدات ديناميكية

غير مغلقة :

إن علم الطبيعة ينظر إلى العالم على أنه نظام محكم مغلق من الأسباب والنتائج

(قانون العلية) بمعنى أن (كل التغيرات الفيزيقية هي نتائج ظروف أو تغيرات في نفس المجال الفيزيقي) ويقصد بنفس المجال الفيزيقي أنه في الطبيعة لا يوجد مؤثرات خارجة عن نفس المجال .

وفي علم النفس يوجد ارتباط يزداد أو يقل قوة بين جميع الظواهر أو الأحداث التي من نفس المجال السيكلوجي .. فالأحداث السيكلوجية تتحد بناء على مجال الحياة السيكلوجية (تاريخ حياة الفرد النفسية) .

إلا أن الموضوع ليس بهذه السهولة في علم النفس كما هي في الطبيعة ويتضح ذلك من تفكيرنا في علل الظواهر أي «كيف ظهر في الوجود موقف معين ؟» تجيب الطبيعة عن هذا السؤال بأن هذا الموقف نتيجة مباشرة لموقف آخر ، وأما إذا لم يكن كذلك فلا بد وأن هناك عوامل في نفس المجال الفيزيقي قد أهملناها .. فالطبيعة تقرر أن لكل معلول علة في نفس المجال وليس هناك أي مؤثر خارجي .

في علم النفس قد نستطيع أن نجد أن الموقف الثاني معلول مباشرة للموقف الأول في بعض الأحيان ؛ أي أن تصرف الشخص « ا » قد أنتج مباشرة موقف الشخص « ب » ومعنى ذلك أننا استطعنا أن نجد علة الموقف الثاني في نفس مجال الحياة في زمن سابق مباشرة كما يحدث في العالم الطبيعي .

ولكن يمكن أن يحدث أيضاً أن الموقف «ب» الذي ينتج من الموقف « ا » لا يكون نتيجة مباشرة له ولكنه نتيجة لتدخل عوامل أخرى من الخارج فينتج عنها الموقف ب وتكون هذه العوامل الأخرى غير متوقعة أو دخيلة على الموقف ؛ فنحن هنا بصدد عوامل خارجة عن الموقف نفسه وأثرت فيه وهذا يعتبر فارقاً هاماً بين علم النفس والعلوم الطبيعية . هذا الفارق يتمثل في أننا في العلوم الطبيعية يمكننا غالباً أن نرد الموقف إلى موقف آخر في نفس المجال ولكن في علم النفس غالباً لا نستطيع ذلك بسبب وجود عوامل خارجية ثانوية أدت إلى نتائج مغايرة . ومثال ذلك نجد أن تغير قوانين العمال كتحديد مدد الراحة أو الضرائب أو غير ذلك لها من غير شك أثر في المجال النفسى وفي عمل العمال وقد يؤدي ذلك إلى تغيرات ديناميكية جوهرية في مجال حياة الفرد . هذه التغيرات لا تعتمد على ديناميكيات في نفس مجال الحياة السيكلوجية . وهكذا نستطيع أن نرد معظم الأعمال السيكلوجية

إلى عوامل خارجية ثانوية فإذا كان النجار مثلاً يشق قطعة من الخشب بمشاره فإن عمله لا يتوقف فقط على العامل السيكولوجي من العمل ولكن يتوقف أيضاً على صلابة الخشب وخصائص المشار الذي يستخدمه وهذا هو نفس ما يحدث عند ما يضغط طفل على قطعتين من الخشب ويجد أنهما لا يلتصقان مهما ضغط عليهما - أو كما يحدث عندما يحاول شخص أن يوجه حزباً سياسياً أو يحل مشكلة رياضية ولا يجد أن الأمور تسير بحسب ما يتوقع أو بحسب ما يريد أن يحدث .

(د) الطاقات النفسية وتكوين العقل :

لئن كان من الثابت الآن خطأ فكرة تقسيم العقل وتخصيص كل جزء منه لعمل من الأعمال كالإحساسات والمشاعر والخبرات العقلية والقدرات الخاصة ، فإن مسألة وحدة العقل لا تزال مسألة غامضة وسنتناول هذه المسألة من بعض نواحيها ؛ ومن أهم هذه النواحي الطاقات النفسية ؛ يوجد اتجاه عام عند بعض علماء النفس إلى اعتبار أن « كل شيء في العقل مرتبط بكل شيء آخر في العقل ». وهذا الاتجاه له نصيب من الصحة ولكنه ليس صحيحاً تماماً وهذا هو رأي ليفين . . ويدكر على سبيل التلليل على ذلك مثلاً من حياته الخاصة « عند ما كنت صغيراً منذ خمسة وعشرين عاماً استيقظت فرحاً لأنني لم أذهب إلى المدرسة في ذلك اليوم وأخذت في العمل على رفع طائرة (طائرة ورق) وأخذت ألعبها حتى الظهر فرجعت إلى المنزل وتناولت الغذاء بشهية ثم خرجت من جديد للعب في الحديقة . هذه الخبرة اليومية وأشباهاها يمكن أن نتذكرها تحت ظروف خاصة (كالتنويم المغناطيسي مثلاً) وإذن فهذه الخبرات لا تزال حية لم تمت ولها تأثير ودلالة في جميع مراحل الترقى ، كما تؤثر في السلوك الراهن ، فإذا كانت هذه الخبرات قوية ، وحادة ، كان لها تأثير كبير على بعض العمليات النفسية الراهنة ، وإذن يمكن أن نقول إن « كل خبرة يومية حدثت في الماضي قد تؤثر بطريقة ما على الحياة النفسية الراهنة » . ولكن هذا التأثير في أغلب الأحيان صغير جداً وقد يصل إلى درجة الصفر أى إلى كمية لا متناهية في الصغر .

ومع ذلك فهناك خبرات في مدة الطفولة لا يزال لها تأثير قوى في سلوكي العام في اللحظة الحاضرة ، فمثلاً إذا نظرت من النافذة ورأيت قطاراً من الدخان يتصاعد من فوهة مدخنة فقد لا يؤثر في هذا المنظر إلا بقسط ضئيل جداً بينما قد يؤثر في

شخص آخر تأثيراً كبيراً نظراً لارتباطه بخبرات سابقة عنده، وإذن يمكن أن تعدل القاعدة السابقة إلى أن « كل خبرة ذات أثر عميق ودلالة قوية تكون متصلة بكل حادثة نفسية أخرى »

ولكن مع ذلك فهذه القاعدة لا تزال غير دقيقة .. فكل خبرة نفسية أو عمل أو انفعال أو غاية أو رغبة أو أمل إنما هي مرتبطة بتركيبات سيكولوجية « فإذا كان هناك حادثان سيكولوجيان فإنه لا يؤثر أحدهما على الآخر إلا إذا كانا من نفس مجموعة العمليات أو إذا كان هناك علاقة بين هاتين التركيبتين السيكولوجيتين »

وإذن فإن خبرة ما — قد تكون ضعيفة في ذاتها — يكون لها أثر قوى بالنسبة لحادثة سيكولوجية معينة أكثر من خبرات قوية أخرى — في وقت معين — بالنسبة لهذه الحادثة (إذا كانت هذه الخبرات القوية تنطوي تحت نظام آخر) .

(هـ) النزعة إلى التعادل :

الانتقال من حالة هدوء إلى عملية من العمليات معناه حدوث عدم توازن (تعادل) في ناحية من النواحي . وهذا يتطلب القيام بعملية أخرى ترمى إلى إحداث التعادل في الشخصية . فكما يحدث التعادل في الناحية البيولوجية حتى يتكيف الفرد بحسب البيئة وكما يحدث التعادل في الناحية الفيزيائية حيث يتساوى سطح السائل إذا وضع في أنبوبة ذات شعب مختلفة كذلك لا بد من حدوث التعادل في الشخصية والعمليات النفسية .. ونلاحظ في هذا التعادل ما يأتي :

١ — يحدث التعادل بالنسبة للشخصية عامة لا من ناحية معينة فقط بل وقد تسير العمليات الجزئية في اتجاه غير متعادل ولكن بحيث تكون النتيجة الكلية متعادلة ومن أمثلة هذا التعادل نسيان الأفكار المؤلمة أو عملية التبرير أو عملية التعويض .. الخ (...)

٢ — وجود التعادل ليس معناه عدم وجود ضغط أو توتر فقد يحدث التعادل مع وجود التوتر ، وظهور مثل هذا النوع من النظام يتطلب من غير شك متانة إغلاق وإحكام الحدود . فإذا كانت أجزاء النظام لا تتحمل القوى المؤثرة فإنه يحدث

حالة إبدال وحركة تنقلات في المناطق حتى يحدث التعادل من جديد ..
والحلل العادى البسيط لحدوث التعادل هو إشباع الرغبة أو الحاجة .. ولكن قد لا يكون
هذا الإشباع ميسوراً مباشرة وعندئذ يحدث نظام جديد يمتد إلى تغيير النظم
السيكولوجية الأخرى كموقف الطفل الذى لا يستطيع أن يشبع رغبته فيرمى على الأرض
ويقوم بحركات رفض وضرب وصراخ وخلافه ثم بالتدريج تبدأ الحالة رغم بقاء
حالة التوتر حيث يشعر الفرد باليأس . فالليأس نظام يرمى إلى التعادل رغم وجود
حالة التوتر . هذه الحالة التى يطلق عليها اسم Tense system تظل كامنة وتتأثر
بالاتجاه العام للشخصية ولكنها لا تؤثر بمفردها بل تظل في حالة الكون حتى يحتل
اتزان الشخصية من جديد وهكذا يمكن اعتبار حالة التعادل مع وجود توتر على
أنها مخزن للنشاط المكبوت .

ماهر كامل